نعى :

الدكتور محمد عبد الحكيم
١٨٩٧ — ١٩٥١

فى الثامن والعشرين من أغسطس الماضى فقد الطب العقلى فى مصر بوفاة الدكتور محمد عبد الحكيم علماً من أشهر أعلامه ورائداً من الرواد الذين سيظل اسمهم مذكوراً بالتوقير والفضل فى تاريخ نهضته .

تخرج عبد الحكيم فى مدرسة الطب المصرية عام ١٩١٩ ، وبعد شهور قليلة من العمل فى المراكز الصحية بالريف التحق بقسم الأمراض العقلية حيث بدأ حياته فى هذا الفرع طبيباً بمستشفى العباسية ، ثم طبيباً بمستشفى الخانكا ، ثم وكيلا للعباسية ثم مديراً للخانكا ثم مديراً للعباسية .

لم يكن الرأى فى المرض العقلى يوم اختار عبد الحكيم العمل فى هذا الميدان كما هو الآن . كان الرأى فيه يومئذ أنه قدر سيء أصاب صاحبه فأخرجه من عداد الإنسان ، أو على الأقل جرده من أكثر حقوقه ، وكان الحجز داخل المستشفى عملا يستهدف مصلحة الجماعة أكثر مما يستهدف مصلحة المريض . وصحيح أن النظرة الدينامية للمرض العقلى كانت فى ذلك الحين قد بدأت فى البلاد الغربية تشرق على ذلك الفرع المهمل المنبوذ من فروع الطب ، ولكن ذلك الشعاع من العلم لم يكن قد وصل إلى مصر بعد ، فكان الشأن فى فهم المرض العقلى وعلاجه لا يعدو الإشراف البدنى على المرضى واستعمال بعض العقاقير المسكنة أو المنومة كلما لزم الأمر ، ولا حاجة فى سبيل ذلك إلى دراسة أو تخصص .

ولكن عبد الحكيم لم يرض أن يقف فى إحاطته بالفرع الذى آثر لنفسه العمل فى ميدانه عند هذا الحد النمطى الآسن ، بل اعتزم أن يدرسه دراسة منهجية متخصصة ، فكان أن أعد نفسه لهذه الدراسة إعداداً طيباً ، وذهب إلى إنجلترا غير مبعوث فى عام ١٩٢٨ لكى يحصل على إجازة التخصص فى (دبلوم الطب النفسى) ، فكان بذلك من أوائل الذين حصلوا على هذه الاجازة بمصر .

ولما عاد ظل شغفه بالاطلاع على ما يستجد فى هذا الفرع مطرداً على الأيام ، واستمر على هذا النحو يطلع ويبحث عدة سنوات قام فى أثنائها بطائفة من البحوث التى نشر بعضها فى المجلة الطبية المصرية ، وبقى بعضها غير منشور . وآخر ما نشر له بحث عن « التشخيص المقارن للحالات السيكوباتية » (مجلة علم النفس ، مجلد ٤ ، عدد ٣ ، فبراير ١٩٤٩) .

وإلى جانب هذا كله كان عبد الحكيم موهوباً من الناحية الكلينيكية ، فكانت له حاسة كلينيكية مرهفة بالغة الدقة زادها صقلا بالملاحظة والاطلاع . وقد تجمع له من التفاعل المتبادل بين موهبته واطلاعه زاد من المعرفة فى هذا الميدان قلما يجتمع لإنسان ، فكان لا يسأل عن أية مشكلة من مشكلات الطب العقلى حتى يفيض بالإجابة فيضاً لا يكاد يقف عند حد . وقد بهرت هذه الثروة من المعرفة كثيراً من متخصصى الجيوش الأجنبية إبان الحرب العالمية الأخيرة ، وهم من خيرة المتخصصين فى هذا الفرع فى العالم أجمع ، فكانوا لا يملكون أنفسهم من إبداء الإعجاب بعبد الحكيم وتقدير علمه الغزير ، هذا برغم عزوفه عن الظهور وترفعه عن الاعلان عن نفسه . وقد سمع كاتب هذه السطور كثيراً من هذه الإشادة التى تسجل فخراً لمصر جديراً بالتنويه .

هذه المكانة العلمية الرفيعة أهلت عبد الحكيم لأن يكون المرجع الذى يلتمس عنده زملاؤه الرأى السديد فيما يغمض أو يستعصى عليهم من مشكلات ، وما نظن أن أحداً من المشتغلين بالطب العقلى فى مصر إلاّ ويشعر أنه مدين لعبد الحكيم ببعض ما يعرف .

ومنذ عشر سنوات بدأت جامعة فؤاد الأول دراسة تخصص فى الطب النفسى والعصبى ، فاختير عبد الحكيم للمحاضرة فى مادتى علم النفس والطب العقلى بهذه الدراسة . وقد هيأ له ذلك أن يصطفى إلى جانبه عدداً من المريدين الذين لمس فيهم الأصالة والنضج والاستعداد الحسن ، وهم الذين يرجى أن يحملوا بعده أمانة الرسالة التى بدأها ومضى فى تعهدها شوطاً غير قليل .

وإلى جانب هذا كله كانت لعبد الحكيم قدرة ممتازة ، وفريدة ، فى التسجيل. وأهم ما تتميز به تسجيلاته وتمتاز الدقة والايجاز والنفاذ إلى لباب الموضوع . كان لا يحب الاسهاب ويتجنبه ، ولكنه مع ذلك كان فى مشاهداته أو تقريراته التى يخطها عن المرضى واضحاً غاية الوضوح دقيقاً غاية الدقة ، فكانت السطور القليلة التى يكتبها تعمل فى التبصير بالحالة ما لا تعمله الصفحات .

أما الجانب الخلقى فى شخصية عبد الحكيم فالحديث عنه يطول . لقد كان ينتظم مجموعة من الفضائل الإنسانية التى قلما نراها فى هذه الأيام . وما ندرى على وجه التحقيق أكان عبد الحكيم يمثل عصراً أو طرازاً من الناس ، لكنا نعارف أنه استطاع أن يعيش بخلقه نظيفاً كريماً فى عصر الأهواء والشهوات . لقد ظل حتى اللحظة الأخيرة من حياته أقوى من هذه الانتهازية المادية التى أغرقت فى لجها كرامات الناس وأذلت أعناقهم . . . ظل فى مكانه يرقب النفوس وهى تتهاوى صرعى فى سبيل تحقيق « مجد » موهوم ، وما كان له أن يفعل غير ذلك وهو العليم بما فى النفس البشرية من مزالق الهوى ومواطن الضعف .

أما حياء عبد الحكيم فقد كان مضرب الأمثال ، وكانت معاملته للصغار من زملائه ومرءوسيه أبلغ مثال للنفس التى لا يزيدها الارتفاع إلا رفعة فتسخو بالقوة عطفاً ومحبة .

كان عبد الحكيم عف اليد واللسان ، وقد تعرض فى السنوات الأخيرة من حياته لكثير من الأحقاد الصغيرة فما حركت فيه ضغنا ولا اختلجت لها نفسه . لقد كان يمر بها مروراً كريماً ، كان يسمو بنفسه فوقها فما استطاعت يوماً أن تنال منه منالا .

وقد اعتلت صحة عبد الحكيم قدراً ما فى السنوات الأخيرة ، ولكن ذلك لم يقعد به عن واجب ، ومنذ أكثر من سنة أصيبت صحته بنكسة مفاجئة احتمل شدتها بنفس العزم والإيمان اللذين احتمل بهما الشدائد الأخرى فى حياته .

لقد مضى عبد الحكيم إلى حيث سيمضى الناس جميعاً ، ولقد ترك بذهابه فراغاً شاغراً من الزاد العلمى والخلقى قل أن يستطاع ملؤه أو تعويضه ، ولكن اسمه سيظل على الدوام نوراً يهدى ، وسيذكره أصدقاؤه أبداً الوفى لهم الحفى بهم الصادق الود الكريم النفس الرضى الخلق .

إننا نحيى فى ذكراه أطيب ما فى الإنسان من خلال .

صبرى جرجس